الأرنبة والأنف

محمد الخضري عبد الحميد

التقط العباسي قبل أن ينصرف قولها الباهيات ، ثم ابتلعت لعابي بصعوبة ، وبعدما أشارت ـ من خلال الأحذية الكثيرة المتباينة المكدسة في تراخم أمام مستوى عيني ، كالجلمود ، في غابة من السيقان والأقدام ـ أبحث عن ديل فستان « سميحة » ، حتى وجدته ، فتعلقت به كأنه كان «القشة» في المحيط .. وعلى الأثر أخذت نفسا عميقا .. وتكورت ناهضا بظهري في عمار الخضم ، تجاه « السطح » .. معاودا بسالة ـ اشكر عليها ! ـ الكفاح للصب القامة ، على أحد ـ بين سوق أشجار الغابة المشرئبة ـ موضعا لقدمي .. !

في الحقيقة أنا كنا « احسن من غيرنا » ! .. فلقد خلعنا وراءنا الكثيرين، في هول وكرب ، تاركين هناك على « محطة الجيزة » بعد أن لم يفز واحد منهم على أن يعد من نفره واحدة في بوابة القطار المقطة اتقاء شدة الزحام ، أو في أبواب العربات المسدودة بركام هائل من لحم آدمي !! .. فذلك كان آخر قطار يحمل مواطني الصعيد ، عقب انتهاء أعياد الاحتفالات القومية في القاهرة .. ومن يتأخر عن اللحاق به فقد ضاعت قيمة تذكرته المخصصة ، ومن ثم كان ذلك الافتتال الحسوس الرهيب على قطار واحد محدود العربات .. نضال من الآدميين عرم لا تحتمل أربعة قطر مجتمعة أن تستوعبه كله !

واتيح لي أن اتمايل في نصف وقفة .. ومددت ذراعي أضرب بهما ـ عشوائيا ـ على غير هدى الا التحميم واقتفاء أثر ملامس الأثواب والبدلات والجلابيب والمعاطف ، حتى حطت أصابعي الجوالة في همة عمياء فوق كتف حريرية الملمس فصرخت بمرح وبملء فمي المدفون « انتي لبي » ؟! فجاءني صوتها ـ صوت « سميحة » زميلتي أمينة مكتبة المدينة ـ يقول في حيرة العريق آنس هتافا رحيما « قل لي أولا انت فين انت » ؟

وعندما سحبت ذراعي الى الوراء بصعوبة بالغة ـ بعد أن اطمأنت على « موقعها ! » ـ انعرست اظافري ، بفعل الضغط الثقيل غير المنتظم ـ في شيء طري ، وعندئذ واتاني صياح حنش قاصف « حاسب ياشخص ! ..

حاسب ارنبة أنفي » !! .. وانفجرت ضحكة بعيده ! .. وكنت قد تعلقت واقعا ، وليس هنا ادري خطأ في التعبير فقد كان جسمي معصورا بين أجساد أخرى مدفوعا الى فوق .. أما القدمان فكانتا تتأرجحان باحثتين ـ عبثا ـ عن أرض صلبة ترتكزان عليها ! .. وكان في المقدور تحمل هذا الوضع دقائق أخر .. لكن حدث أن اختل التوازن ، ولقيتني بعد أن كنت « مزروعا ! » بالطول ، اذا بي اطفو على سطح الرؤوس واتمدد ـ مكره أخوك ـ بالعرض .. !! وصرخ صوت آخر اكثر حنقا : « انزل يارجل حطمت الطربوش الهي يحطم صلوعك !! .. انا مفتش زراعة ! .. فهمي المستحف درجة رابعة ! .. انا .. انا حامل تذكرة أولى » !! .. ولكن عطف على احتجاجاته الراقية المسكينة كركرة ضحكة انثوية ناعمة ، بديعة المضمون .. !!

غير أن الله اراد بتخفيف العبء هونا ما ، فقد نزلت طائفة في محطة المحافظة التالية ! .. وعموما .. لم يكن الامر « نزولا » بقدر ما كان «كركرة» على أرض الرصيف حديدي البلاط !! .

وبهذا وحده نقدر لنا ـ أناوسميحة ـ أن نقف أخيرا هنا لعين ، وان كان جسدانا لا يزالان غاطسين في الصنبور .. !!

وشيء ما حدا بي الى ان افتقد اولئك الذين آذيتهم مضطرا ، واصروا بنا مرغمين ، !! رأت سيجا معصما بديعا وأنيقا في ذات الوقت يكاد في نعومة صوفية محبه الاحتفاظ الى اقصى وقت مستطاع بالخبر الصحم الذي يشغله . .. لاشك انه هو نفسه صاحب « ارنبة الانف ! » ـ المجنى عليها ! ـ التي اصبحت بحمشات اظافري !! .. ارنبه انفسه ! .. هاها ! .. مدرس عربي بالمفروزة .. !!

وواصلت التعرف ـ في خومة الشد والجذب والانفاس اللاهثة ـ على رفقاء «الحشرة العظيم ! » .. لكني حولت بابي مهذب ساخط عندما لويت رقبتي الى الوراء : « ياسيد ! .. ياسواطين ! .. كسرت نظارتي الشمسية ! ده نوع ابطالي ، معشش منه ! .. حرام عليكم ياأخوانا ، ده انا معتش زراعة ! .. انا رحت درجة أولى بتذكرتي المتأرجة لعينها مليانة بطرقاتها ناس وقعف وشنط ومقاطف » !! ..

وللمرة الثانية رنت الضحكة المجهولة السليطة .. !

وعلى اثرها صدحت الضحكة الثالثة القريبة ذات الطابع الملىء بالرقي والحشمة ، والمفعم طربا أرض غربا !!

وفي احدى هزات القطار مالت « الحمولة » كلها ، في اتجاه واحد .. فسقط الى قاع العربة من سقط .. وعام على المناكب والاعناق من صعطه وقع المسل المفاجىء . وكان الركام اللحمي كله قد طوى معتش الزراعة ـ حامل تذكرة الدرجة الاولى ! ـ فراح يندب الطرف ، ويرثي النظارة ويترحم في لوعة تكلي على « شعرها ! » الفريد نادر المثال .. بينما علت دمدمة الاستاذ البدين ، وهو يتشبح بدوره و « يزن !! » ارنبة الانف المجروحة مع اخواتها الاخريات من معظم تضاريس الوجه .. !

وكما يحدث في كل مرة من مرات الشكوى والرغيق والاحتجاج جلجلت الضحكتان ! .. طرقعت ضحكة الرجل الساخر العنيد .. وغردت ضحكة « الأنثى » الطروب التي لم نكن رأينا لها وجها بعد .. !

ومالت « سميحة » على أذني هامسة وهي تحدثني بما وسعها من جهد ، مشيرة الى مقعد غير بعيد ' « باين عليها عروسة جديدة » !!

ونظرت الى الاتجاه الذي أومأت اليه ، فاذا بصبية من الريف ، جاروا على حسنها الفطري بضروب صارخة الابتذال من الكحل والحمرة والحناء ، فبدت في انسانتها الوسيعة ـ شبه النابتة ـ كدمية صغيرة من دمى الاعياد ذوات الالوان الفاقعة الزاهية ... !

وأحسني أن أكون قد أطلت ـ أكثر مما ينبغي ـ في تسليط نظرتي .. فان سميحة ما لبثت أن جذبت مرفقي الى الخلف قحة ، مصطنعة ضحكة دهش مثيرة لتتحول انتباهي الى ناحية أخرى يجري فيها « مشهد » آخر ! .. كان الرجل ذو الضحكة العريضة المتحررة ، وهو ـ بالتأكيد ـ واحد من « أولاد البلد » أصحاب المقاهي ، أو ممن يحملون المؤهل الشعبي العريق «المعلم» .. كان قد استغل أحسن استغلال قوة زنديه حتى شق لنفسه طريقا ، وانتشل من ركن الدوامة القصي ، معيش الزراعة ، وعاد به في حنكة رجل اتقاد سواحل فاحلة فوق كل من الحقائب كان يصنع لنفسه منه مقعدا عاليا يشرف من فوقه بسحريائه الضاحكة ! .. وشكره الرجل في رفق وكياسة ثم لم يلبثا أن اندمجا معا في حديث شائق سمعنا منه بعض الشذرات :

ـ قلت لي أن سيادتك مفتش زراعة .. !

ـ آه والله يا .. يا .. اسم الكريم؟!

ـ محسوبك والعبد لله .. المعلم كرشه .. !!

ـ تشرفنا على كل حال ! .. انا فهمي .. فهمي السحاب .. !!

ـ بالجودة يابو السحاجيب ! .. تسمح بقى تقول مني دي ؟!

ـ ايه دي ؟! .. حضرتك ؟! .. مصري ؟!!

ـ آه ! .. والا اكملها مصري بصي ؟! .. احدع صنف وحياة رقبتك !

ـ لا مش قصدي .. صنف جميل فعلا .. لكن ...

ـ طب وشرفك ما تكسفني ! .. ده احنا ولاد بلد يابني مفيش ! .. دهدي .. ؟! .. انا ما يخلصنيش أبدا تفصل كده من غير حضارة ! . آه . « الشهومية ! » ياعني ما تستحملش ؟ .. وانا كنت جايبها لولاد اللي حاكم اصله « تلمود ! » وعايق حتتين ، لكن هايف .. خسارة فيه ؟!

ومن الركن جاءت مناقشة أعلى عطت على حديث ذينك الرجلين .. كان الاستاذ ذو العمة يحيي شخصا آخر بحمية

ـ يا انثى اصل عامل عملية فيها ! .. ثم ان لساني احد على كده ! .. انا معلم لغة عربية ! .. ما اقدرش اقول (مباحيرى) ! .. وكمان اسم « اربنة الانف » حاجة مش عربية ياخي ! .. ماعربتنش حتى «القراء الرشيدة» ؟! .. لكل انف اربنة ! »

عند ذاك جاءه شاب يقول :

ـ اتمعنى اوفنا احنا حالية من الارانب ؟!

ونظرت فاذا الشيخ المعمم كان قد اوجد له أولاد الحلال مكانا كريما على قمة « مقطف ! » ؛ ومن ثم ـ وهذا كان سر لطف الحديث ـ بدأ كلامه مع ساقيه لسانا رقيقا ـ !

وشاب مره احسست بالطريق لادس يكاد يخلع من كتفي خلعا بعمل حادثة قوية قالت لي « سمحة » بعدها :

ـ مالك سارح كده ؟! . عاجبك « العروسة الجديدة » ؟! .. ثم ابصت ملاحظها تلك بابتسامة حبيبة تحول وهي تومىء براسها ذي الحدائل النحلة . ثم تقول باسمة :

ـ اسمع ... « اربنة انفي ! » انا الاخرى ، بكون في علمك ، تسم كل حاجه ... !

ـ كل حاجة زي ... ايه ؟!

ـ البنت الفلاحة الزوقة ! . عاجبك جدا ! .. واحده بالي انا ... !

هـا يقتضيني الحال ان اقول ان « سمحة » رمبلني امبه المكتبة التي اعمل بها « كاتب حسابات » لهذا مشكلة ! .. ومشكلتها تتصل ـ بخيط او اكثر ـ بمشكلتي ! .. فهي فتاة يتيمة ليست على جمال خارق ، تعول اخوة واخوات ـ . طالما حدثتها في شأن الزواج فكانت تعترض بهدوء ، وتتابى في غير دلال ، حتى بيد انها برواحها عن اداء رسالتها الاساسية في الصرف على اخوتها .. وكان شرطي الوحيد هو « الا تعمل » عندما تروح . وليس ذلك نسخه قصور في مداركي .. ولكنه خلاصة مركزة و « صيغة نهائية » لتخطيط طويل المدى كنت قد وضعته سلفا لمستقبل حياتي ! . وعند تلك الصخرة وقفت بورقيبا الرئيس البارات .. فالاعجاب متبادل ، بريتا عدريا وقورا .. ولكن .. لاتحن اصحنا روحين .. ولا نحن صرنا ـ وحسب ـ مجرد زميلين .. وبعد هذا كله ف .. عرض الزواج لا زال قائما لا يلقى الا الامتعاض الرقيق دائما ... !

وكنت انا الذي جذب كوعها هي بمتة هذه المرة وانا أشير الى فتى ريفي قادم بطفل صغير يرفعه الى اعلى ذراعه ، مشيرا بحوة الناس المتراصين ان يفسحوا للا يصار الولد ! .. ثم حط في نهاية الشوط القاسي وليده على حجر «لمة اللاستك الملونة ! » صغيره السن ، التي تلقفته بلهفة صبيانية طائشة وهي تهدهده وتداعبه بصفير ، وتصفير الحروف ومط شفتيها ودغدغة وجنيه

ـ « اسم الله ! .. سلامة ! .. انت جيت ياكبير ! .. جيت يا مرزوق ؟! .. شربت مر جنينة القطر يامرزوق ياغشاشا » ؟! ... فلت لسمحة دهشة

ـ ارنبة انفك صحيح قوية الشم !.. دلتنا على « ارنبة » حقيقية !

فلما سألتني كيف ؟ اجبتها

ـ انظري ! ... بنت الـ ١٣ سنة ها هي تقدم للعالم «باكورة انتاجها»!! باترى كم « نسخة !! » من « مرزوق » ستهديها عروس المولد هذه الى «مكتبة المجتمع » !!!

وسرحت « سميحة » وقد تشبثت عيناها باصرار حائل باستغراق عجيب تتأمل وتتابع دقائق المداعبات الطفلية التي احتدم أوارها بين العروس المحتفلة و .. و « مرزوقها ! » الاول ... !!

اما انا فبعد أن تذكرت علبة سجائري اخرجت منها واحدة لاعطيها للشيخ دي العمامة .. وهنا استلفت نظري « مشهد » آخر أروع ... الاستاذ المغوى من فوق درا المقطف الذي يربع عليه ، يتلقى اشارات تحايا اخوية ودود بالغة الالفة من مفتش الزراعة الذي لاح انه « مسجم ! » جدا مع « المعلم كرشة » ويقول للشيخ :

ـ ارى ارنبته انفك دلوقت ؟ ! .

فتحسسها الشيخ وهو يحب مقهقها .

ـ بخير ! .. على فكرة .. ان رزق المركز ممكن تمر على الحتة شاعتي ؟!

ـ بكل ممنونية ! ... العنوان ايه ؟!

ـ آدي « الكارت » شاعتي .. !

والقى بالبطاقة فطارت عبر الاكتاف والرءوس وتلقاها « كرشة » الذي ناولها للمفتش وراحا يصلان ما كان قد توقف من حديثهما ! . واعجبني ذلك الود الخالص الذي فرض نفسه فازال في طبيعته رائعة مصطنع الحواجز . وعولت على تتبع التجربة اللطيفة ، الا ان همسة حاقدة افلتت من بين شفتي « سميحة » قطعت تسلسل الافكار في ذهني

ـ ياحلاوته ... !!

ـ هو مين ياسميحة ؟!

ـ مرزوق ... !!

وكان « مرزوق » الوليد يبادل امه (الطفلة) ضحكات ملائكية عذبة .. فيا لعيني ـ لست أدري كيف ـ كما لو كانا ليس اكثر من « زهيلين » سعيدين !!!

حينذاك توقف القطار ، ونزل منه الاستاذ بعد ان صافحنا جميعا ، ثم لوح لنا بكتا يديه ، ولما أقفل باب العربة وراءه .. عاد ثانية فاطل من خلال النافذة براسه ، محييا ومودعا وهو يهمهم بعبارات الشكر للجميع .. وقبل ان ياخذ طريقه قدما .. عاد فرجع خطوة وهو يميل من فوق الرصيف في ملكز يقول للمفتش « اوعى تنسى » !! .. فرد عليه مفتش الزراعة ملوحا له أيضا وبين اصابعه البطاقة ! « حاضر .. الى اللقاء ومع الف سلامة » !

وبعد أن هدات سحة الوقف على المحطة .. وهدنا انا وسميحة الى مراقبة « الارنبة الجميلة » وتأمل اناملي كفيها المخضبتين بالحناء القانية ،

والتعليق على اطلع حركات « مرزوق » وليدها ، الباسم الضاحك بلا انقطاع مثلها .. !

كان معتش الزراعة في ذلك الآن يشرح للحلقة التي التفت حوله ومن تحت « عرشه » العالي ، في تقدير ، كيفية تطعيم النباتات والشتلات بحيث يتحول « التارنج » فيصبح ـ حسب الطلب ! ـ ليمونا او برتقالا او «يوسفندى» !! .. وكيف ان عود القصب الواحد في الامكان تربيته ـ وفق المزاج ، وتبعا للحاجة ! ـ فيكون الناتج « عنب ارضي » او « عنب سلوك » او عنب ـ كاللبلاب الشامق ـ يطرح فوق « تذاعيب » !!

وكان تعليق المعلم كرشة الذي طغى على همهمات الآخرين عبارة قالها باعجاب :

ـ باقوة الله !.. الله يفتح عليك!.. اما حتة معتش انما ... عمرة ... !

وكان المعتش لقبا وليس المحصر لطيفا والحق يقال ، لانه عندما جر الحديث موضوع أجهزة راديو « ترانزيستور » المنتشر بغزارة في الارياف وكيف أن « الترانزستور » قضى عليه قضاء مبرما ، وانها سنة التطور وارتقاء العلم .. راح معتش الزراعة يستفسر المعلم عن أنجح الطرق لـ « تزويج » جهاز مذياعة القديم .. اذ انه يسبيل دفع قسط أول لحجز « تليفزيون » بالمرة ! .. فقال له المعلم : « من فين » ؟! .. وهنا مد المعتش يده في جيبه واخرج حافظته واستخرج من تجويف فيها احدى بطاقاته واعطاها لـ « المعلم كرشة » ورجاه أن يزوره ! .. ثم أخرج قلما وراح يسجل على ظهر « كارت » الاستاذ المعمم ، عنوان المعلم كرشة من الوقت الذي كان فيه المعلم

يعلى عليه العنوان مفصلا بخريطة جغرافية تبين طرق الوصول اليه .. !

وهدات سرعة القطار ايذانا بقرب توقفه على محطة محافظتنا .. وتاهبت للنزول .. واذا بى أرانى مضطرا الى « خلع » سميحة من عمق الشرود بعيد العمر الذى عاشت بجماع وجدانها فيه وراء تأملاتها الصامتة الهائمة فى العروس الريفية الصغيرة وطفلها « مرزوق » الضحوك ، وكانا طوال الوقت لا يكفان لحظة عن المناوشة ، والالتحام ، والتهمهة .. !

وفيما نحن ـ أنا وسميحة ـ نستعد للتقدم للقترب من الباب .. رايت مفتش الزراعة يضايق المعلم كرشة بحرارة وصدق فى كثير من التقدير .. وراح المفتش يقول وهو يناهب معنا لنزل بدوره على ذات المحطة الآتية :

ـ فرصة سعيدة ! .. والله انى لست نادما على الفارق فى تذكرتى المتازة تذكرة الدرجة الاولى .. اقسم بالله انى قضيت وسطكم أسعد والذ « سهرية » فى حياتى ... !!

وشيعه المعلم فى احترام صاحك : « ابن حلال يامسيحف ! .. فى حفظ الله يامفتش ! .. أما مفتش انما ... آخر طرافة » !!

وقلنا ، وفى ظنى ان كل ما كان سوف ينسى حالما تطأ اقدامنا « البر » على أرض رصيف بلدنا ...

الا ان الذى ادهشنى ، وسرنى واسعدنى ، هو اننا وبعد ان قطعنا أكثر من كيلومتر ، مشيا فى وجوم وصمت .. فوجئت بـ « سميحة » تسوقنى ، بغتة ، متوهجة الوجنتين وقد تألقت عيناها ببريق مثير ، .. وفى حالة ليست اطلاقا بنت لحظتها قالب حجلى ولكن فى عزم حازم ، وبصوت مرتعش مرهف حالطته نغمات سحيقة العمق لم تكن من قبل مألوفة قط فى أى من طبقات صوتها .

ـ اسمع .. معيش مانع ، زى بعضه .. و .. و .. و .. وكفاية علينا « مرزوق » « واحد .. !! !!